سلسلة تفريغات شبكة بينونة

دور الخطاب الديني المعتدل في الإصلاح وعلاج الفكر المنحرف

الشيخ د. سعيد بن سالم الدرمكي

قام به فريق التفريغ في شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@BaynootnanetUAE @Baynoonanet www.baynoona.net

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر شبكة بينونة للعلوم الشرعية أن تقدم لكم تفريغًا لمحاضرة

بعنوان

{ دور الخطاب الديني المعتدل في الإصلاح وعلاج الفكر المنحرف }

للشيخ

د. سعيد بن سالم الدرمكي

-حفظه الله تعالى -

نسأل الله سبحانه وتعالي أن ينفع به الجميع

حقوق الطبع محفوظة لشبكة بينونة للعلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد.

فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

ظهر في زماننا وللأسف من يطعن في الخطاب الديني الشرعي، ويراه غير صالحٍ لعلاج الانحرافات العقدية أو الفكرية، والتي أطلّت علينا وبكثرة في هذه الأزمان مع خروج الفرق الضالة المنحرفة، كفرقة الإخوان المسلمين، والدواعش، والقاعدة، الذين أحدثوا في الأمة من الفساد ما أحدثوه، وبدأوا المطالبة بإلغاء الخطاب الشرعي واستبداله بخطابٍ آخر من وضع البشر؛ لأنه يرى أن هذه الفرق المنحرفة تستعمل الخطاب الشرعي القائم على قال الله قال رسوله، فقال هذا الخطاب الشرعي غير صحيح؛ لأن الناتج عنه جماعات منحرفة وآثار سيئة على العالم الإسلامي، ثم تطاول بعضهم وبدأ يطالب بأن

يكون وسيلة تصحيح الانحرافات الفكرية: الموسيقى، والغناء، والرقص، واستمسك بجملة من الشبهات التي طعن بها في الخطاب الشرعي.

فأحب من خلال هذه الكلمات أن أبيّن سلامة وصلاحية الخطاب الديني الصحيح لعلاج أي انحراف عقدي وفكري إلى قبل قيام الساعة، مع رد بعض الإشكالات التي يريدها من جهل محاسن الإسلام، وجهل محاسن خطاب الإسلام الشرعي الصحيح القائم على قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، وتطبيق الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الخطاب.

فأقول: من المعلوم قطعًا عند كل مسلم أن الله سبحانه وتعالى قد ختم بشريعة الإسلام جميع الشرائع السابقة، وختم برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم جميع الرسالات، فلا نبي ولا رسول بعده، ولكون هذه الشريعة هي الشريعة الخالدة إلى قرب قيام الساعة، جعلها الله سبحانه وتعالى صالحةً مصلحةً لجميع الأفراد والمجتمعات على مدى الدهور والأعصار، مهما تطاول الزمان وتطورت الحياة وتغيّرت.

ولذلك جاءت نصوص الشريعة من كتابٍ وسنة تأمر العباد باتباعها وعدم مخالفتها، ووعدهم ربهم سبحانه وتعالى بالسعادة في الدارين، وتوعّد من خالفهما بالذل والمهانة والشقاء في الدارين، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[طه:١٢٣-١٢٦]

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن اتباع هدي الكتاب والسنة سببٌ لتحقيق الهداية والخروج من الخلاف مهما عَظُمَ، فقال صلى الله عليه وسلم: « تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ »(١).

ولذلك كل من أراد الصلاح والإصلاح وقمع الفساد والإفساد فلن يجد غير الهدي الإسلامي كوسيلة لتحقيق هذه الغاية، بل كل وسيلة تعارض الشرع الحكيم فإنها سببٌ في الفساد والإفساد وإن رآها بعضهم ذات نفعٍ، وإلا لما منعها الشرع وحرّمها، فالمقصد من التشريع هو الأمر بكل ما فيه صلاحٌ وإصلاح، والنهي والمنع عن كل ما فيه فسادٌ وإفساد.

ومن الإشكالات التي عالجها الشرع الحنيف: مشكلة الانحرافات العقدية والفكرية، حيث أخبر الله عز وجل عن وقوعها وطرق الوقاية منها،

(١) رواه مالك في الموطأ.

وحذّر من أسبابها، وبيّن طرق علاجها في حال وقوعها، والانحراف العقدي والفكري قديم الوقوع، منذ عهد نوحٍ عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين﴾[هود:١١٨-١١٩]

بل هو من الابتلاء الذي جعله الله سبحانه وتعالى في الأرض ليُمحّص الصادقين من الكاذبين، قال عز وجل: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين﴾[العنكبوت: ١-٣].

ومن فضل الله على هذه الأمة أن بيّن لها سبيل الخلاص من هذا الخلاف والانحراف عن طريق الخطاب الديني المعتدل الوسطي المبني على اتباع الوحي، قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾[آل عمران:١٠١].

والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن سبيل النجاة من الانحرافات العقدية والفكرية في غيرما حديث، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: « فإنه مَنْ يَعِشْ مِنكم بَعْدِي فَسَيرى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء المهديِّين

الراشدين، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإيَّاكم ومُحَدَثَاتِ الأمور، فإن كل مُحْدَثَة بِدعَة، وكلَّ بدعة ضلالة »[١]

فذكر النبي صلى الله عليه وسلم الداء وهو: الافتراق والاختلاف، ثم ذكر الدواء وهو: اتباع سنته وهديه، واتباع سنة وهدي الصحابة من بعده، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون والحذر من البدع والمحدثات.

فمن أراد النجاة من هذه الاختلافات العقدية والفكرية فلا بد أن يتضمّن خطابه وحواره مع المنحرفين هذا المنهج النبوي، فإنه كفيلٌ بحماية العباد وصيانة عقيدتهم وفكرهم، ولذلك قال الزهري رحمه الله: "السنة سفينة نوح، من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك".

والصحابة رضوان الله عليهم بادروا إلى استعمال خطابٍ دينيٍ قائمٍ على تطبيق هذا المنهج الشرعي عند الاختلافات والفتن فنجوا، ومن أعرض عنه هلك، وأنا أذكر لكم أمثلةً تبيّن هذا الأمر:

ومن ذلك ما رواه الدارمي عن عمرو بن يحيى، قال: "سمعت أبي يُحدّث عن أبيه، قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعودٍ قبل صلاة الغداء، فإذا

---

(١) رواه ابن ماجه.

خرج مشينا معه إلى المسجد، وجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: **أخرجَ إليكم أبو عبد الرحمن بَعْدُ** –عبد الله بن مسعود–؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: **يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أرَ والحمد لله إلا خيرًا**، قال: **فما هو؟** فقال: **إن عشت فستراه**، قال: **رأيت في المسجد قومًا حِلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقةٍ رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبّروا مائة فيكبّرون مائة، يقول: هللوا مائة فيهللون مائة، يقول: سبّحوا مائة فيسبّحون مائة**، قال: **فماذا قلت لهم؟** قال: **ما قلت لهم شيئًا انتظار أمرك**، قال: **أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم.**

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقةً من تلك الحِلق، فوقف عليهم فقال: **ما هذا الذي أراكم تصنعون؟** قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: **فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضامنٌ ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمدٍ ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبْلَ وآنيته لم تُكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملةٍ لهي أهدى من ملة محمدٍ أو مفتتحي باب ضلالة**، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، قال: **وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله**

صلى الله عليه وسلم حدّثنا أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله لا أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة: **فرأينا عامة أولئك الحِلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج**".[١]

فتأمل أخي الموفق كيف زيّن الشيطان للناس الابتداع في أمر دينهم، إذ أظهر لهم البدعة في صورة عبادةٍ يتقرّبون بها إلى الله، وفي حقيقتها انحرافٌ في الاعتقاد والسلوك، والصحابة رضوان الله عليهم رجعوا في تقويم هذا الانحراف إلى أهل العلم؛ لأنهم الأقدر على معرفة الخطأ وتصويبه، والطريقة المناسبة لذلك، فلما عُرض الأمر على الصحابي الجليل العالم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خَاطَبَهمْ وحاورهم بأسلوبٍ تضمّن المنهج النبوي في العلاج، فردّ الانحراف العقدي والفكري إلى السنة وأقوال الصحابة، فقال لهم ابن مسعود رضي الله عنه: "**هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبلَ وآنيته لم تُكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملةٍ لهي أهدى من ملة محمدٍ أو مفتتحي باب ضلالة**"، فهذا الفعل الذي تفعلونه مخالفٌ لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ومخالفٌ لما كان علي الصحابة رضوان الله عليهم.

الذين خالفوا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الوصية وفي طريقة

---

(١) رواه الدارمي في مسنده .

تصحيحه لهذا الانحراف ماذا حصل لهم؟ ما وجدوا إلا الضلال والهلاك، قال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج، أعرضوا عن الخطاب الشرعي الصحيح والامتثال له، فانحرفوا في عقيدتهم وفي سلوكهم، ووالله لو أنهم التزموا نصيحة ابن مسعود رضي الله عنه لنجوا، ولكن الشيطان صدّهم عنها.

ولما ناظر ابن عباس رضي الله عنهما الخوارج، ليعاين انحرافهم العقدي والفكري استند في خطابه الديني معهم على المنهج النبوي، فقال لهم: **"جئتكم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله"**، رجع منهم قريب من ألفين وأما البقية قيل: ما يزيد عن أربعة آلاف إلى ستة آلاف وأكثر، فقد قاتلوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقاتلهم في معركة النهروان، فالذين استجابوا للمنهج النبوي في تصحيح الفكر والعقيدة نجوْا، ومن تخلف عن هذا المنهج ولم يمتثل له هلك.

ثم سار العلماء الربانيون رحمهم الله على ذات المنهج، يعالجون الانحرافات العقدية والفكرية بخطاب ديني معتدل، أساسه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقة الصحابة وهديهم، فهذا هو إمام أهل السنة أحمد بن

حنبل رحمه الله لما وقعت فتنة القول بخلق القرآن، وهو انحرافٌ عقديٌ خطيرٌ جدًا، اتبع ذات المنهج في خطابه الديني، فكان يقول لهم: **"يا أمير المؤمنين اعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقول به"** ولكن أهل الأهواء لا يرتضون هذا المنهج، فكان أحمد بن أبي داؤود هو رأس الفتنة، المعتزلي، يقول للإمام أحمد: "أنت لا تقول إلا ما في الكتاب أو السنة" معترضًا على المنهج النبوي الذي سلكه الإمام أحمد رحمه الله في خطابه وحواره، فماذا كانت النتيجة؟ نصر الله الإمام أحمد رحمه الله لاتباعه المنهج النبوي السليم في علاج الانحراف العقدي والفكري، وخذل الله رأس الفتنة ورد كيده في نحره.

ومن الأمثلة التي تبيّن سلامة الخطاب الديني المعتدل القائم على المنهج النبوي في علاج الانحرافات العقدية، ما ورد في مناظرة شيخٍ كبيرٍ عالمٍ لابن أبي داؤد في فتنة خلق القرآن بحضرة المعتصم، والقصة طويلة أكتفي بذكر المناظرة،

"إذ قال المعتصم لابن أبي داؤد: سلْه

فقال الشيخ: المسألة لي، تأمره أن يجيبني

فقال: سَلْ

فأقبل الشيخ على ابن أبي داؤد يسأله فقال: أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو

الناس إليه، أشيءٌ دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟

قال: لا

لا يستطيع أن يقول: نعم، وإلا قال: اثبت، وأهل المجلس عندهم علمٌ بالحديث والسند والرجال، فسيُكذَّب

قال: لا، لم يدعُ إليه النبي صلى الله عليه وسلم

قال: فشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟

قال: لا

قال فشيءٌ دعا إليه عمر رضي الله عنه بعدهما؟

قال: لا

قال الشيخ: فشيءٌ دعا إليه عثمان بن عفان بعدهم؟

قال: لا

قال: فشيءٌ دعا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعدهم؟

قال: لا

قال الشيخ: فشيءٌ لم يدعُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله تعالى عنهم أنت تدعو الناس إليه؟

ليس يخلو أن تقول: عَلِمُوه أو جَهِلُوه

فإن قلتَ: عَلِمُوه وسكتوا عنه، وسِعَنا وإياك ما وَسِع القوم من السكوت، فإن قلتَ: جهِلوه وعلِمتُه أنا، فيا لُكَعُ بن لكع، يجهل النبي صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدون رضي الله تعالى عنهم شيئًا وتعْلمه أنت وأصحابك؟"

والقصة رواها الذهبي في السير، والأجرّي في الشريعة، وابن بطة في الإبانة.

فهذا الشيخ كما تلاحظون استعمل في علاج الانحراف العقدي الخطاب الديني القائم على السنة النبوية وهدي الصحابة رضوان الله عليهم، وفي الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» هذا الداء، ماذا نفعل يا رسول الله؟ ما هو الدواء؟ قال: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ» وهذا ما فعله هذا الشيخ، فماذا جرى؟ قُطع ابن أبي داؤد، وأُلجم، وكانت النتيجة ما ذكره الذهبي بقوله: "وسقط من عينه" يعني الخليفة "ابن أبي داؤد ، ولم يَمْتَحِنْ بعدها أحداً" والأمثلة في هذا الباب كثيرةٌ.

فالخطاب الديني المعتدل القائم على النصوص الشرعية والاستدلال الصحيح وفهم السلف الصالح، هو أفضل طريقةٍ يمكن للأفراد بل وللدول استعمالها لعلاج جميع الانحرافات، عقديةً كانت أو فكرية.

ولكن بقيت استفساراتٌ واستشكالات قد تُثار حول إمكانية استعمال الخطاب الديني المعتدل في العلاج، أذكرها وأبيّن التوجيه الصحيح حولها:

الإشكال الأول: يقولون: إذا كان للخطاب الديني أثرٌ في الإصلاح وعلاجٌ للفكر المنحرف كما تدّعون، فلماذا نرى في الواقع ضعف هذا التأثير؟ تأثيره ضعيف على الناس، وذلك من خلال وجود أفكار منحرفة، والتي قد تصدر ممن يتكلّم بالخطاب الديني وينادي به.

الجواب: الخطاب عمومًا والديني خصوصًا، يتكون من عناصر، وهي:

١- المُخاطِب

٢- المُخاطَب

٣- وفحوى الخطاب

٤- ومضمونه

٥- والصيغة التي يُؤدَّى بها هذا الخطاب

٦- والوسيلة المستعملة في تبليغه

لا يَخْلُ أيُّ خطاب من هذه العناصر، فمن أجل أن يعطي الخطاب الديني ثمرته ونتيجته المتوقعة لا بد أن تحقق الشروط اللازمة لذلك، وتنتفي الموانع التي تحول دون تحقق هذه النتيجة، فإذا تخلّف أثر الخطاب فإن ذلك

يرجع إلى وجود إشكالٍ في أحد هذه العناصر، بتخلف شرطٍ أو وجود مانعٍ، الأمر الذي أدّى إلى عدم ظهور النتيجة.

فقد تكون فحوى الخطاب الديني غير صحيح، إما من جهة ثبوته: كأن يستدل المُخاطِب بحديثٍ ضعيف

وإما من جهة فساد الاستدلال

وقد يكون لدى المُخاطَب وهو المقصود بالخطاب من الموانع ما يحول بينه وبين فهم الخطاب الديني، كالهوى والتعصب والتقليد المذموم وعدم الفهم والإدراك، أو ضعف الفهم والإدراك ونحو ذلك

فقد يأتينا رجل فيقول: قال صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي بحديثٍ موضوعٍ أو ضعيف ويؤدي لانحراف الناس في سلوكهم، ونقول: الخطأ يرجع إلى الخطاب الديني

الجواب: لا؛ لأن ما يُسمى بالخطاب الديني لدى هذا الرجل ليس بخطاب ديني أصلًا؛ لأنه قائم على حديثٍ موضوعٍ لا أصل له، أو حديثٍ ضعيفٍ غير صحيح، أو على خطأ في الاستدلال، يأتي بالدليل فيستدل به على غير وجهه الصحيح.

وقد يكون المُخاطَب الذين أخاطبهم أنا أو يخاطبهم الداعي الذي يريد أن

يصحح ما عندهم من انحراف، لديهم موانع تحول بينهم وبين تأثرهم بهذا الخطاب، ولبيان ذلك أضرب مثالًا لنبي الله نوح عليه الصلاة والسلام ولاستعماله الخطاب الديني في دعوته لقومه، وتأملوا معي ولنطبق العناصر:

- المُخاطِب: نوح عليه الصلاة والسلام.
- المُخاطَب: قومه.
- فحوى الخطاب ومضمونه: من عند الله سبحانه وتعالى، ولا شك فيه ولا مرية.
- الصيغة التي يُؤدَّى بها هذا الخطاب أفضل الصيغ.

لأن الله سبحانه وتعالى اختار نوحًا عليه الصلاة والسلام واصطفاه، مع تنوع الوسيلة المستعملة في تبليغ هذا الخطاب، فاستعمل الترغيب والترهيب، والنصيحة العلنية والسرية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِين (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُون (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾[نوح: ١-٥] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ

﴿إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[نوح:٨-٩] إذًا تنوعت أساليب تبليغ الخطاب الديني.

ما هي النتيجة؟

قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[هود:٤٠] ما هو السبب في عدم إيمان قوم نوحٍ به وتأثرهم بخطابه الديني؟

الجواب: السبب يرجع إلى المُخاطَبين وهم قوم نوح؛ لأنهم رفضوا الاستمرار في الاستماع لخطابه الديني، قال تعالى مبينًا حالهم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[نوح:٧]

بالله عليكم من كانت هذه حاله عند استماعه للخطاب هل سيتأثر به؟ إذا كنت أنا أَسْمَعُكَ وأنا أعتقدُ في قرارة نفسي مسبقًا أنك على ضلال، وأنك منحرف، وأن خطابك غير صحيح، وأني أعلى منك، وأصمّ أذني عن الاستماع إليك، هل سأتأثر؟ وظهر هذا الاستكبار في احتقار نوحٍ عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه من قومهم، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

إذًا الخطاب الديني سليم، وله أثره؛ لأنه من لدن حكيمٍ خبيرٍ بالناس وأحوالهم وما يصلحهم، ولا يمكن الطعن في المُخاطِب ولا في فحوى خطابه وصيغته؛ لأنه نبيٌ من أولي العزم اختاره الله واصطفاه، ولكن وُجد مانعٌ حال دون وقوع أثره، وهو رفض قوم نوحٍ لهذا الخطاب، وتكذيبهم واحتقارهم للمُخاطِب ومن معه، فلا نلقي باللوم على المُخاطِب وهو نوح عليه السلام لعدم ظهور نتيجة خطابه الديني المحكم، وإنما يُلقى اللوم والخطأ على قومه المُخاطَبين، وهذا هو الحال مع بقية الرسل والأنبياء، لدرجة أن بعضهم يأتي يوم القيامة ولم يتبعه أحد، قال صلى الله عليه وسلم: « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فرأيتُ النَّبِيَّ مَعَهُ الرَّهْطُ، والنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجل، والنَّبِيَّ مَعَه الرَّجلانِ، والنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »[١].

ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى جعل مهمة الرسل والدعاة البلاغ ومحاولة الإقناع والإرشاد، وهداية الناس هداية البيان والدلالة والتعليم، أما الانقياد للحق واتباعه فهذه مسؤولية المُخاطَبين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِين﴾[النور:٥٤] وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ

(١) متفقٌ عليه .

وَلَـكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَن يَشَاء﴾[البقرة:٢٧٢].

الإشكال الثاني: قالوا: "الاختلاف في مضمون الخطاب الديني الناتج عن اختلاف الفِرق والجماعات التي تدّعي استعمال الخطاب الديني مع وجود التناقضات فيما بينها يؤدي إلى عدم الثقة في دوره في عملية الإصلاح وعلاج الانحراف الفكري".

كُلُّ جماعة تدّعي أن هذا خطاب ديني صحيح، وإذا نظرنا إلى هذه الجماعات وجدناها متناقضة، هذا يحرّم وهذا يُحلّ، هذا يوجب وهذا يحرّم، هذا يذهب إلى اتجاه آخر وهذا يعاكسه، هل هذا الخطاب يصلح أن يكون له أثر في عملية الإصلاح وعلاج الانحراف الفكري؟ يقولون: لا.

الجواب: هذا الإشكال مبنيٌ على عدم فهم طبيعة الاختلاف الواقع بين البشر عمومًا وبين المسلمين خصوصًا، فالله سبحانه وتعالى بيّن أن الاختلاف سنة كونية ولا بد من وقوعه بين الناس ابتلاءً واختبارًا لهم ليتبيّن الصادق من الكاذب والمتبع من المبتدع، قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود: ١١٨-١١٩]

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع الاختلاف في هذه الأمة في

أحاديث كثيرة

وحذّر الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من خطابهم الذي يُستعمل فيه الدين على غير وجهه الصحيح، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران:٧] فيتركون المحكمات من الأدلة، ويركنون إلى المتشابه لينصروا انحرافاتهم العقديّة والفكريّة، والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن ذلك جلّيًا لحذيفة رضي اله عنه، حيث قال له: «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» فقال حذيفة: صِفهم لنا، قال: «مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» [(١)]، فبيّن صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الدعاة الذين انحرفوا عن الحق يستعملون الخطاب الديني، لكن لا لينصروا به الحق، وإنما ليُضلّوا الناس عنه.

ومن الأمثلة الجلّية التي تبيّن استعمال بعض الفرق المنحرفة للخطاب الديني لنصرة فكرهم المنحرف: الخوارج

حيث قال صلى الله عليه وسلم مبيّنًا حالهم: « يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا

(١) متفقٌ عليه

تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ »[1] وفي رواية: « يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فأخبر صلى الله عليه وسلم عن الخوارج أنهم يستعملون الخطاب الديني المتضمِن للنصوص الشرعية، ولكنه خطابٌ منحرف أدّى بهم للمروق من الإسلام وأحكامه؛ لأنهم استدلوا بالنصوص في غير ما وُضعت له وفسّروها بأهوائهم.

ومن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة أن بيّن لها الخطاب الديني الواجب الاتباع عند حصول الاختلاف والفِتن، فقال صلى الله عليه وسلم: « فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ».

فالخطاب الديني العاصم من الانحراف العقدي والانحراف الفكري هو الخطاب الوسطي الصحيح، القائم على اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم واقتفاء فهم السلف وعلى رأسهم الصحابة رضوان الله عليهم، ومن لم يفهم

---

(1) رواه مسلم .

هذا الأمر اشتبه عليه الأمر ورمى الخطاب الديني بالتناقض والفشل.

الإشكال الثالث: قالوا: "الخطاب الديني خطابٌ قديم له وقته الذي يناسبه، لكن لا يَصلُح ولا يُصلِح وقتنا المعاصر المتطور، المختلف كليًا عن وقت تكوين الخطاب الديني، ذاك عصر كان بعد العصر الجاهلي، لا يوجد فيه التطور التقني الحالي، فلذلك الخطاب الديني في هذا الزمان لا يصلح حتى تطالبون بتطبيقه".

وهذه شبهةٌ يُجاب عنها من وجوه:

الوجه الأول: هذا الإشكال وهذه الشبهة نابعة عن جهلٍ بحقيقة هذا الدين وهذه الشريعة التي جعلها الله خاتم لجميع الشرائع إلى قيام الساعة، وإذا اعتقدنا بأنها شريعة خاتمة وأنه لا شريعة بعدها، فيلزم من ذلك صلاحيتها مطلقًا وأبدًا، وإلا احتاجت لشريعةٍ أخرى تكمّلها وتكمّل نقصها، وهذا لا يقول به مسلم.

الوجه الثاني: أن المسلم يعتقد أن الواقع المتطور هو الذي يخضع في أحكامه للشريعة الإسلامية، وليست الشريعة هي التي تخضع وتتغير لتغير الواقع وتطوره، وإن كانت قواعدها تراعي اختلاف الزمان والمكان، وفيها من المرونة ما يسع هذه التغيرات، ولكن تجد أصولٌ وثوابتٌ وقواعد هي الأساس

الذي ينبغي أن تنطلق منه أي حضارةٍ وأي تقدم، وهذه الأصول والثوابت تشتمل على أرقى القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية المُصلِحة لكل زمانٍ ومكان، وتجمع أصول الكمال والتقدم والحضارة.

الوجه الثالث: مما يدلنا على صلاحية الخطاب الديني ومواكبته لأي تطورٍ وتقدم: قيام حضارةٍ إسلامية امتدت نحو ثمانية قرون، استفاد منها الغرب وباعترافهم في حضارتهم الحالية، فلم يكن الخطاب الديني سببًا في توقف التطور والتقدم، بل نصوص الشريعة الإسلامية تدعو للتعلّم والتطور بما يخدم الناس في هذه الحياة من أجل تحقيق الهدف الأعظم من وجودهم على الأرض وهو تحقيق العبودية لله تعالى.

الوجه الرابع: الخطاب الديني المعتدل يسعى إلى تهذيب التطور الحضاري والتقدم الفكري البشري بما يعود بالخير والسعادة على البشرية جمعاء، يسعى إلى ربط العلوم الحياتية بالأخلاق، ولذلك يحرّم كلما فيه الضرر بالإنسان وما يحيط به، لأن الإنسان مؤتمنٌ على نفسه والآخرين والمكان الذي يعيش فيه، أما الحضارة القائمة على تقديس المادة ولو على حساب الروح وأحكام الدين فإنها تقوم على مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة، فلأجل التقدم المزعوم صُنعت الأسلحة المُدمّرة للبشرية وللحيوان والأرض والبحار والمياه.

في حين أن الخطاب الديني المعتدل ينص كما في قوله تعالى على: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٦] وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَاد (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَاد﴾[البقرة: ٢٠٥-٢٠٦]

الحضارة التي تغلو في المادة على حساب القيم والأخلاق انتهكت باسم التطور والتقدم آدمية الإنسان واحتياجاته الفطرية، أصبحَ الإنسان لديهم حقل تجارب، أما الخطاب الديني المعتدل فيحترم الإنسان لبشريته ودينه، ويصون دمه وماله وعرضه ليعيش في أمنٍ وسلامةٍ وسعادة.

ونقول في الختام: الخطاب الديني المعتدل القائم على اتباع النصوص الشرعية بفهم السلف الصالح من الرعيل الأول من الصحابة والتابعين والمهتدي باجتهاد العلماء الربانيين، والذي يدعو إلى جلب المصالح وتكثيرها ودفع المفاسد وتقليلها، ويتضمن خيري الدنيا والآخرة وما يحقق السعادة للعبد فيهما هو الخطاب القادر على الإصلاح وهداية البشرية وإنقاذها من الانحرافات العقدية والفكرية التي تعصف بهم.

أسأل الله أن يوفقني وإياكم لكل خير، إنه على كل شيءٍ قدير، هذا والله أعلم.

حقوق الطبع محفوظة

شبكة بينونة للعلوم الشرعية